تأثير الطرق الصوفية على المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني

أ/ بكاي رشيد – قسم علم الإجتماع
والديموغرافيا – جامعة عمار ثليجي الأغواط

إتسم العهد العثماني في الجزائر بإنتشار ظاهرة التصوف وسيطرتها على توجيه مسار الحياة السياسية والإجتماعية والروحية بوجه لم يسبق لهذه البلاد أن عرفت مثيلا له.لكي نعرف دور الصوفية وموقفهم من الوجود العثماني كسلطة بديلة لابد من الإشارة إلى أن الحركة الصوفية بالجزائر كانت قد إنتشرت بكامل القطر قبل مجيء العثمانيين.[1] إذ كان الحس الوطني كما نفهمه اليوم يكاد يكون منعدما عند الخاصة، بل العامة كذلك، فإنّ "الحس الروحي" الممزوج بالتصوف هو الذي كان يجمع شتات القبائل والإمارات تحت مظلته، وبه كانوا يشعرون أن مصيرهم واحد إزاء الغزو الصليبي لهم، فرغم تفرقهم وتناحرهم أحيانا، من أجل توسيع نفوذهم وإكتسابهم لمزيد من الإقطاعات، إلا أنهم سرعان ما توحدهم كلمة "الجهاد" في سبيل الذود عن حرمة الإسلام وحماه، وأن الصوفية في الغالب هم الذين كانوا يغذون تلك الوطنية الدينية أو ما يمكن أن نطلق عليه "سلطة الصوفية."

أولا : سلطة الصوفية على المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني

ففي تلمسان مثلا، كان يغذي السلطة الروحية كثيرون من أشهرهم عائلة إبن مرزوق[2]، وكان الشيخ أحمد بن يوسف الراشدي، دفين مليانة، المتوفى سنة (927هـ)[3] يروج للطريقة الشاذلية والتي كان يرتدي خرقتها في كامل القطر، وقد إشتهر بالقطبانية والولاية في عهده، وذاع صيته في الناس، ونزل إلى العامة يستميلهم إليه، فلقنهم الذكر، فتبعه خلق كبير، حتى النساء، وقيل له في ذلك، "أهنت الحكمة" في تلقينك الأسماء للعامة حتى النساء، فقال قد دعونا الخلق إلى الله فأبوا: فقنعنا منهم بأن نشغل جارحة من جوارحهم بالذكر[4]وكان من نتيجة نشاط الشيخ إبن يوسف، أن انتشرت الطريقة الشاذلية في كامل القطر الجزائري، فضلا عن إنتشارها في المشرق والمغرب قبله بواسطة مؤسسها أبو الحسن الشاذلي وأتباعه، ونذكر من أتباع إبن يوسف المليانى في الجنوب الغربي من الجزائر: الشيخ إبن سليمان المعروف باسم: سيد الشيخ صاحب الياقوتة، وتأسست في هذه الجهة زوايا كثيرة من أهمها الشاذلية وقد لعبت هذه الطريقة، ممثلة في شخص إبن يوسف المليانى دورا رياديا في إعلاء سلطة الصوفية، ونظرا لخطرها فقد إتصل العثمانيون بممثلها واستمالوه لجهتهم، فما كان منه إلا أن بارك وجودهم، وتحالف معهم على محاربة العدو المشترك، الإسبان من جهة وسلطة الزيانين بتلمسان المتحالفة مع الإسبان على العثمانين من جهة أخرى [5].

وأما في قسنطينة التي كانت تابعة للسلطة الحفصية بتونس، قبل الوجود العثماني بالجزائر، وكان أمر "السلطة الروحية" فيها بيد أكثر من عائلة، أهمها عائلة الباديس، وعائلة آل عبد المؤمن، وعائلة

الفكون، وهذه الأخيرة هي التي عمل معها العثمانيون نفس ما عملوه مع إبن يوسف المليانى في الغرب، فقد رحبت بالوجود العثماني، وتحالفت معه فآل إليها مصير قسنطينة "الروحي" أما عائلة آل عبد المؤمن التي كان بيدها الحل والربط والتي انتصرت للحفصيين، فكان مآلها الخسران مع العثمانيين[6].

وفي الجزائر سبقت الإشارة إلى أن صوفية الثعالبة تحالفوا مع العثمانيين، وعقدوا مع بابا عروج العثماني معاهدة لصد الإسبان الذين كانوا متمركزين بصخرة "بنيون" على مقربة من شاطئ المدينة[7]. وقد خان سالم التومي ـــ الذي كان يمثل السلطة الزمنية ـــ المعاهدة فخنقه الترك، ولكن ثقتهم في رجال الدين بعامة، والصوفية بخاصة، بقيت على حالها ثابتة، فقد عين العثمانيون أبا عبد الله محمد بن علي الخروبي سفيرا لهم مرتين على الأقل، يمثلهم لدى سلاطين المغرب الأقصى، وكان الخروبي من رجال الدين والتصرف، وهو من تلاميذ أحمد زروق، قدم إلى الجزائر من طرابلس، فاستوطنها وتوفي بها سنة 961هـ[8]

وأما في عنابة، فقد قصد العثمانيون عائلة ساسي البوني، التي كانت تمثل السلطة الروحية هناك، فلم تخيّب العائلة قصدهم، بل توطدت بينهم علاقة حميمة على مر الزمان، وتتجلى هذه العلاقة من خلال الرسائل[9] المتبادلة بين محمد ساسي البوني، ويوسف باشا "الجزائر" من جهة، وبين أحمد بن قاسم البوني (الحفيد) ومحمد بكداش من جهة أخرى، ويمكن النظر إلى موضوع هذه الرسائل من جوانب ثلاثة:

الأول: يفيد تقرب السلطة العثمانية من الصوفية، وإضفاء هالة من التقديس الأعمى عليهم، وإيمانها العميق بهم كأولياء الله الروحيين في الأرض.

والثاني: يتمثل في ما يمكن أن نسميه "سلطة الصوفية" على كل من الحكام والرعية، لخضوع الكل لمشورتهم عند العزم.

والجانب الثالث: الذي يمكن أن نستشفه منها، هو تعميق وترسيخ "التفكير الغيبي" في مقابل تعطيل التفكير العقلي، وتهميش ممثليه الذين نشتم منهم رائحة الإصلاح.

وفي داخل الوطن إقتفى كثير من مشايخ الصوفية أثر من سبق في تحالفهم مع العثمانيين، فاتبع المليانى وتلاميذه و إقتفوا في أغلبهم صنيع شيخهم، نذكر، محمد بن شاعة الذي أعفاه العثمانيون من الضرائب لموقفه الإيجابي منهم [10]. ومن غير المستبعد أن يكون تلميذ المليانى، محمد بن عبد الجبار الفجيجي المتوفى سنة 950هـ قد تعاون مع العثمانيين إقتداءا بشيخه، فقد كانت له زاوية بمنطقة تاسالة، جعلها وقف على المريدين الذاكرين[11].

وفي ضواحي شلف كان يرابط الشيخ إبن المغوفل، وهو من صلحائها الروحيين، وكان له في قومه نفوذ، لذلك كان أول من قصده العثمانيون في هذه الجهة، وطلبوا إليه مبايعتهم، ومناصرتهم على الزيانين، ومباركة حملتهم عليهم، فكان لهم منه ما أرادوا، وجهز لهم حملة وبعث معهم ولديه بعد أن إعتذر الشيخ عن الذهاب معهم[12].

وفي مجاجة قرب مدينة "تنس"، كانت ترابط عائلة أبهلول المجاجي، وقد أسست هذه العائلة زاوية بمجاجة وكان من بين أهداف مؤسسيها: الجهاد في حماية سبيل الإسلام والأرض الإسلامية من الغزو

الصليبي، وقد تعاونت هذه العائلة كذلك مع العثمانيين، وكان من أشهر رجالاتها في هذه الفترة، الشيخ محمد بن علي أبهلول المجاجي[13]. وقد ظلت هذه الزاوية تؤدي دورها في الجهاد في العهد العثماني، ولم ينقطع هذا الدور بذهاب العثمانيين، إذ برز أحفاد الشيخ كمجاهدين مع الأمير عبد القادر الجزائري، الذي تصدى للغزو الفرنسي[14].

ولقد تعمدت سوق هذه الطوائف من المتصوفة والطرق الصوفية التي سطع نجمها وتزامن مع الوجود الفعلي للعثمانيين بالجزائر لسببين:

الأول: هو أن الحركة الصوفية بهذه البلاد كانت موجودة وشائعة قبل الوجود العثماني في الجزائر، فليس العثمانيون هم الذين أوجدوها، أو جلبوها معهم، كما قد يتبادر إلى كثير من الأذهان، بسبب أن فترتهم هي التي ذاع فيها التصوف والطرق الصوفية أكثر من أي وقت آخر، فلم يكن العثمانيون في حقيقة الأمر إزاء إنتشار ظاهرة التصوف بشكل يبعث على الدهشة والتساؤل، إلاّ كمّن يصب الوقود على النار[15].

والثاني: هو أن الشعور بالوحدة الوطنية [16] سياسيا كان منعدما، بمعنى أن حلقات السلطة الزمنية التي كانت تمثلها الدولة الزيانية بتلمسان كانت مفككة، ولم تكن شيئا مذكورا في الواقع، وإن كانت نظريا تقوم ببعض ذلك، كما سبقت الإشارة. والذي كان يقوم مقام تلك الوحدة هو "الدين" بعامة "والتصوف" بخاصة، أو ما يمكن أن نسميه "بالسلطة الصوفية"، التي كانت تغذي تلك الروح عن طريق "سلاسلها" "وطرقها الصوفية"، التي كانت بمثابة الأحزاب في وقتنا المعاصر تشعر الأتباع، والناس عموما بالمصير المشترك كلما داهمهم مد الخطر الصليبي.

حتى إذا جاء العثمانيون ألفينا الصوفية هم الذين سارعوا في بادئ الأمر بحكم "سلطتهم الروحية" على الأهالي إلى مبايعة العثمانيين، والتعاون معهم، ومباركة حركتهم الجهادية، في حين أن ممثلي السلطة الزمنية، مثل "الزيانيين" وبعض الأمراء مثل سالم التومي، وغيره قد تنكروا للوجود العثماني وحاربوه، بل تحالف بعضهم مع العدو (الإسبان) على أن يذعن للسلطة العثمانية[17].

ولقد شجع العثمانيون رجال التصوف، وأهل الطرق الصوفية، وذلك بانحيازهم في بادئ الأمر إلى رجال الدين والتصوف، وفيما بعد شاركوا مشاركة فعلية في بناء القبب والأضرحة والمزارات وفي "دار السجل" الوطني عدد كبير من الوثائق التي تدل على تلك المشاركة السخية، وقد تولت (المجلة الإفريقية) بنشر بعضها، ويصادف المتصفح لها كثيرا من العبارات مثل "أما بعد فهذا ضريح الولي الصالح الزاهد الورع (كذا) سيدي عبد الله بن منصور أدركنا الله برضاه آمين"[18].

ويجد القارئ أيضا عبارات أو نصوصا كثيرة تدل على مشاركتهم في تشييد القبب مثل "أمر بتشييد هذه القبة المباركة مع التابوت أمير المسلمين السيد مصطفى باي أيده (كذا) الله، ونفعه بذلك سنة ثمانية عشر

بعد المائتين وألف[19]. " أما بعد أمر ببناء هذا المقام السعيد، أمير المسلمين... " إلى آخر النص الذي يوضح أن صاحبه أمر بذلك ويقصد من وراء عمله "وجه الله، ورجاء ثوابه"[20].

كما ساعدوا "الصالحين ببناء الزوايا والرباطات، وأنفقوا في سبيل ذلك أموالا سخية، فرتبوا لبعضها أوقاتا خاصة[21]. وأعفوا المقربين منهم من

الضرائب[22]. ومنحوهم حرمة وحصانة، فالمستنجد بحماهم لا يلحقه أذى ما دام في حمى "الشيخ" ولو كان المستجير مجرما.

بذلك وجد التصوف المجال خصبا للنماء والانتشار والشيوع بين العامة والخاصة، وتطعم بالمعتقدات الشعبية المحلية فانتشرت ـــ لذلك بجانبه الخرافة والإيمان بالشعوذة ـــ

وعمت الطريقة، فلا نكاد نجد علماً من الأعلام المشهورين بعلم الظاهر أو الباطن غير منتسب لطريقة أو لشيخ معين، وكيف لا و حكمة أبي يزيد البسطامي القائلة: "من لا شيخ له فشيخه الشيطان[23]". كانت رائجة على كل لسان، لذلك كان الناس يفخرون بانتسابهم إلى هذه الطريقة أو تلك، وإلى هذا الشيخ أو ذاك، وكثيرا ما نجد في تراجم الأعلام لهذه الفترة عبارة مثل: فلان "أخذ" عن الشيخ الفلاني "علم الظاهر" أو "علم الباطن" أو هما معا، وأما العامة من الناس، وبخاصة منهم النساء، فيكتفون غالبا، بالاعتقاد الراسخ في الشيخ أو "الضريح" القريب منهم، ويلجئون إليه كلما أصابهم ضر أو ألمت بهم مصيبة[24]. وما تزال آثار هذه المعتقدات سارية إلى اليوم في بعض الأوساط الشعبية، وأحيانا في أوساط المتعلمين، (وحتى المثقفين منهم).

ولقد أعطى ذلك التجارب بين الصوفية والسلطة العثمانية، نتاجا ثقافيا غزيرا، مشوبا في أغلبه بالتصوف، والتفكير الباطني، المعتمد على المجاهدة، وتصفية النفس بالترك والزهد والتخلي للتحلي، وقلما نجد نتاجا ثقافيا، يعود إلى هذه الفترة قد نجا من "حمّى" التصوف، ذلك أن أغلب الشيوخ المتصدين للإفتاء والتدريس كانوا يجمعون بين علمي الظاهر والباطن، كما أن المؤسسة التعليمية المفضلة كانت غالبا هي "الزاوية" وكانت المواد المدرسة في أغلبها دينية مشبعة بروح صوفية، وكان التصوف من بين المواد المدرسة

من خلال بعض الكتب المشهورة: كالرسالة القشيرية، وحكم بن عطاء الله وإحياء علوم الدين للغزالي، وقوت القلوب لأبي طالب المكي، وغيرها من أمهات الكتب والتراجم.

وكانت "الزاوية" إلى جانب قيامها بالتعليم، تقوم بوظائف أخرى مكملة لغرس بذرة "الفكر الباطني" في الطالب أو المريد، والذي يغرسها عادة "شيخ الزاوية" أو مقدمها[25]. ففيها يتم أخذ "العهد" أو الطريقة، وتعتبر الزاوية، والشيخ، والمريد، والطريقة من أهم الأسس التي تُعدُّ الفرد في المجتمع الجزائري إبان العهد العثماني إعدادا "باطنيا" وتجعله قابلا لتلقي "المعرفة الوهبية" إذا "فتح" الله عليه، وفي الوقت نفسه يتقلص تلقائيا بناء العقل فيه ويصبح دوره مقتصرا على الحفظ والتخزين والاعتقاد بلا انتقاد، ما دام أن "العلم" الذي ينشده ليس من قبيل العلم الذي يتم إدراكه بالعقل، فالعقل في نظر مجمل الصوفية يولد وهو يحمل معه عاهة قصوره، يقول الكلاباذي[26]. العقل محدث والمحدث لا يمثل إلا نفسه.

وإن كنا لا نستطيع إحصاء كل الزوايا التي كانت تقوم بتلك المهمة فإننا نحاول أن نذكر هنا أشهرها مع الإشارة إلى أهم الطرق الصوفية، ولا غرر أن أشهر طريقة من حيث الذيوع والانتشار كانت الطريقة القادرية، الشاذلية، ليس في الجزائر فحسب بل وفي العالم الإسلامي قاطبة[27].

وحسب بعض الروايات[28]، فإن الطريقة القادرية التي تنسب إلى الشيخ عبد القادر الجيلالي المتوفى في سنة 561 هـ[29]، قد انتقلت إلى الجزائر، بخاصة والمغرب بعامة عن طريق الشيخ أبي مدين التلمساني، سنة 594 هـ بتلمسان ، وتقول نفس الروايات: إنّ أبا مدين التقى بالجيلاني في موسم من مواسم الحج، وفي الحرم المكي كان اللقاء، وأنه لما عاد إلى وطنه أشاع

الطريقة القادرية ونشرها في المغرب عموما عن طريق مريديه وأتباعه، وعن طريق هؤلاء إنتشرت في كامل بلاد المغرب والمشرق، وإنتشرت معها وبها الزوايا والمشيخات.

وكان من تلاميذ أبي مدين عبد السلام بن مشيش، وكان هذا أستاذا ومربيا لأبي الحسن الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية[30]. والذي كان قد ولد سنة (539هـ) بإحدى قرى المغرب الأقصى سنة واحدة قبل موت أبي مدين التلمساني، وقد استقر أبو الحسن بمنطقة "شاذلة" بتونس فنسب إليها، وظل يتردد بينها وبين الإسكندرية والقاهرة كلما طرأ طارئ، وقد وسعت حركته وتنقلاته هذه، معارفه وتلاميذه، وكثر بذلك المنتسبون إلى طريقة الشاذلية وقد توفي أبو الحسن الشاذلي سنة (656 هـ) [31].

وقد يتساءل سائل عن سبب تسمية هذه الطرق بأسماء أصحابها من المشايخ دون الإنتساب إلى الأصل أي "القادرية" وأرى أن مرجع ذلك يعود إلى أحد مبادئ الطريقة القادرية التي كان يبثها عبد القادر الجيلاني في مريديه وهو الإنفصال[32]. بمعنى أن المريد بمجرد أن يصل إلى مستوى المشيخة، ويجيزه الشيخ الذي أخذ عنه، فهو في حل من أمره، بل من المستحب والواجب عليه أن "ينفصل" عن شيخه ويصبح في عداد الشيوخ الذين يعتمدون على أنفسهم في اجتهاداتهم وسلوكهم، ويمكن لهم عندئذ أن يؤسسوا زواياهم، وأن يدعوا إلى طرقهم التي تسمى غالبا بأسمائهم، كما هي الحال مع أبي الحسن الشاذلي الذي تنسب إليه معظم الطرق الصوفية الموجودة بالجزائر إبان العهد العثماني، ولكن معظم تلك الزوايا تسمى بأسماء أصحابها أيضا مثل الزاوية البكرية التي أسسها الشيخ البكري بمنطقة تمنطيط، وكان قادريا، شاذلي المذهب وتوفي 1133هـ وقد سبقت الإشارة إلى أن

سيد الشيخ صاحب الياقونة، كان قادريا، شاذلي المذهب، كما أن عبد الكريم الفكون وأحمد بن عمار، كان مثله على الطريقة الشاذلية.

أما في الشرق الجزائري فقد إشتهرت في كل من الجزائر، وقسنطينة ، الطريقة الرحمانية التي أسسها عبد الرحمان الأزهري وتأسست بها عدة زوايا من أهمها زاوية باش تارزي بقسنطينة التي أسسها عبد الرحمان باش تارزي ، والزاوية العزوزية بضواحي بسكرة التي أسسها تلميذه ابن عزوز البرجي المتوفى سنة (1233هـ)، وقد إمتدت فروع هذه الزاوية إلى تونس وطرابلس، عن طريق أبناء إبن عزوز البرجي.

وكانت الطريقة التيجانية التي أسسها أحمد التجاني المتوفى سنة (1230هـ) من أهم الطرق التي شدت إنتباه الناس إليها ، لأنها كانت من بين الزوايا أو الطرق التي ثارت في وجه الوجود العثماني ، لها عدة

فروع في المغرب الأقصى والسينغال وغيرها من الدول الإفريقية ، وفي منطقة القبائل نذكر الحسين الورثلاني المتوفى (1193م)[33] الذي ورث الطريقة والزاوية عن أجداده إذ كانت لهم ببني ورتلان زاوية عامرة بالطلبة والمريدين.

وإن كنا تفتقد الآن إلى إحصائيات رسمية لكل الزوايا ومذهبها في الجزائر فإن ذلك لا ينفي أن عددها كان كبير مع نهاية العهد العثماني ، ونذكر على سبيل المثال أن مدينة قسنطينة وحدها كان لها زهاء ست عشرة (16) [34]، ومدينة تلمسان كان بها ما يزيد عن ثلاثين زاوية [35] ، وأما بمنطقة القبائل وبجاية فقد كانت من أكثر جهات البلاد كثافة من حيث عدد الزوايا إذا بلغ عددها نحو الخمسين [36] ، هذا في شمال البلاد ،أما جنوبها فلم تكن تخلو عشيرة منها ، بل لقد كانت الزاوية ترحل أحيانا مع الراحلين

كما هو بالقياس إلى زاوية سيد الشيخ ، الذي اضطرته الخلافات المذهبية إلى التنقل بزاويته.

وفضلا عما كانت تقوم به الزاوية من وظائف متعددة ، فإنها كانت كذلك مخازن للكتب ، ومن أشهرها مكتبة زاوية الفيجيجي التي وصفها ابن عبد السلام الناصري ، وأشار إلى إعتناء آل الفيجيجي بها ، ومباهاة غيرهم بما فيها من نفائس الكتب [37] ، وكانت زاوية سيدي الهواري بوهران التي آلت إلى تلميذه إبراهيم التارزي تحتوي على مكتبة ضخمة [38] ومما لاشك فيه أن الاستعمار الاسباني قد نهبها ،وأكمل نهبها الاستعمار الفرنسي بعده ، وقد ذكر الكفيف في رسالته إلى التعالبي [39] عنايته بمكتبته وتدبير أمر تهريبها خارج المنطقة الحضرية خوفا عليها من الانتهاب لأن شواطئ بجاية كانت بدورها عرضة لهجمات الأسبان آنذاك.

وكانت لعائلة الفكون مكتبة ضخمة وغنية بنفائس المخطوطات وكان اعتماد الفكون (الحفيد) في ثقافته الدينية والصوفية عليها كبيرا وكانت مكتبة الفكون من ضمن المكتبات التي مسها الإحصاء أثناء الحملة الفرنسية في الجزائر [40]، كما كانت مكتبة عبد الرحمن باش تارزي من أشهر المكتبات بقسنطينة إذ ذكر تقرير الإحصاء الفرنسي بها ما يزيد عن خمسمائة مخطوط جلها في الفقه والدين [41] وحسب هذا التقرير، فلا تكاد تخلو زاوية أو مسجد من مكتبة.

وقد ساعدت هذه المكتبات على نشر الثقافة الدينية في أوساط المريدين المترددين إلى مشايخها، ويذكر أحد التقارير[42] أن المستوى الثقافي للجزائريين في نهاية العهد العثماني، كان أفضل بكثير من مستوى الجنود الفرنسيين الذين كانوا في الجزائر أثناء حملتهم على العثمانيين لها، إذا شهد

شاهد من قواد الجيش الاستعماري يومئذ أن الأمية بين جنوده بلغت 45 ٪ وبالمقابل كان عدد القادرين على القراءة والكتابة من الجزائريين يفوق بنسبة 55% ولكن بعد أكثر من قرن من الاحتلال الفرنسي يقول تقرير آخر[43] ، أن الأمية وصلت بين الجزائريين مابين (75/70%) مما يدل على سياسة التجهيل التي انتهجتها فرنسا في الجزائر.

لكن إذا كانت هذه الإحصاءات تبين بعض جوانبها إرتفاع نسبة المتعلمين في العهد العثماني ، فإنها لم تكشف بذلك عن درجة وعي هؤلاء المتعلمين ، لقد كان جل المتصوفة –الذين ندرس أثارهم – متعلمين

بل ومؤلفين ، ولا أريد أن أشير هنا إلى جل مؤلفاتهم [44] ولكن أريد أن أشير إلى أنها كانت اغلبها في الدين والتصوف ، وإلى أنها كانت حصيلة الفكر الباطني السائد الذي قدته المؤسسة التعليمية التي كانت غالبا " زاوية " أو مذهبها القائم على أساس "اعتقد ولا تنتقد " ، كما كان قائما أيضا على أساس " العلم الوهبي " المنافي للتحصيل القائم على العقل ، ودوافع التأليف غالبا ما كانت قائمة على أساس غيبي " أو خدمة للطريقة أو حبا لأولياء الله " ورجاء كرامتهم ورضاهم.

ولنا أن نتخذ لذلك كتاب " البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان " " لأبن مريم " نموذجا لمجموعة كبيرة من المؤلفات مشابهة له مضمونا " لندرك أن الأساس الذي قام عليه تأليف كتابه وهو في التراجم لا يخرج عما ذكرنا آنفا وفي معناه يقول في المقدمة "أنه كان مجرد حب الأولياء والولاية وثبت أن المرأ مع من أحب ، فكيف بمن زاد على مجرد المحبة بموالاة أولياء الله تعالى وعلمائه ، وخدمتهم ظاهرا وباطنا بتسطير أحوالهم ، ونشر

محاسنهم، في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، نشرا يبقى على مر الزمان، ويزرع المودة لهم ،والحب في صدور المؤمنين لإقتداء بهم بحسب الإمكان[45].

وإذا كان منطلق ابن مريم في تأليفه "لبستانه" منطلق باطنيا يخضع لروح العصر كما هو واضح من بعض مقدمة الكتاب ، وكذلك متنه ، فإننا نأتي بالمقابل بنموذج آخر مناقض له، يزعم فيه مؤلفه الشيخ عبد الكريم الفكون[46]، أنه سيشهر سيف العقل على كل الباطنية والدجاحلة بوجه خاص، وقد قسم الفكون كتابه إلى مقدمة، وثلاثة فصول وخاتمة، وبين في المقدمة أن الذي حمله على وضع هذا الكتاب هو ما كان يراه من انقلاب الأوضاع أمام عينيه: فالجهلة أصبحوا أدعياء للعلم، والعلماء أصبحوا في موضع الخساسة وأهل الطريقة الحقة كلاهم أهل الزندقة والبدع ، وبعد ذلك يقول "كل ذلك والقلب مني ينقطع غيرة على حزب الله العلماء أن ينتسب جماعة الجهلة المعاندين الضالين المضللين لهم ، أن يذكروا في معرضهم ، وغيرة على جانب السادة الأولياء الصوفية أن تكون أراذل العامة، وأنذال الحمقى المغرورين أن يتسموا بأسمائهم .[47]

لكننا عندما نقرأ هذا الكتاب، نجد سيف العقل الذي سله الفكون حاد في المقدمة مغلولا في الفصول، وأن هذا السيف بدوره لم يتحرر من روح العصر الصوفي الذي كان مسيطرا على الثقافة العامة، وحتى لا نظلم الشيخ نعرض بعض ما جاء في الفصل الأول الذي خصه لمن لقيه من العلماء والصلحاء المقتدي بهم، ومن لم يلقهم ممن توفوا، ونقلت إليه أحوالهم وصفاتهم يعّرف بهم ويذكر مناقبهم، وقد جعل على رأس هذه الطائفة عمر الوزان وهو من أعيان قسنطينة الذين عاصروا الفكون (الجد)، وقد وصفه الفكون (الحفيد) أي صاحب الكتاب، بعدة أوصاف منها قوله،" شيخ

الزمان " ومنها "العالم العارف بالله الرباني" ومنها "وله في طريق القوم اليد الطولي ومنها "ويقال أنه دعوة الشيخ الصالح القطب الغوث أبي العباسي أحمد زروق" ومنها "ومن كراماته رضي الله عنه ....." ثم يذكر عددا منها،[48] وللعلم فهو لا ينكر كل ذلك بل يشيد به ، وهكذا نلاحظ أن لا الفكون ولا غيره استطاع أن ينفلت انفلاتا كليا من طوق التصوف الذي كان يحوط العهد العثماني في الجزائر بطوقه ، ويطبعه

بطابعه ،فظهر ذلك جليا في مؤلفات هذا العهد ، مثل مؤلف ابن مريم ، ومؤلف الفكون ، فضلا ، عن مؤلفات أخرى مثل رحلة الورثلاني[49].

ورحلة ابن عمار[50]، ورحلة إبن حمادوش[51]، ورحلة العياشي[52]، التي كتبها بعد العهد العثماني، وغيرها، وهي في أغلبها عبارة عن تراجم وأخبار، اعتنت بالحركة الصوفية ممثلة في الشخصيات المترجم لها، فإذا تصفحناها فإننا نجد العبارات الصوفية مثل (العارف بالله) و(الشيخ الرباني) و(صاحب المكاشفات والكرامات) و(من كشف له الغطاء) و(مجاب الدعوة) وغيرها من الأوصاف التي لها علاقة (بالكرامة) و (الولاية) و (القطبانية العظمى) وهي العبارات الرائجة أكثر من غيرها.

كما ظهر ذلك في نظم العامة ، ومن أشهر المنظومات التي تعود لهذا العهد منظومة عبد الرحمن الأخضري المتوفي سنة (953هـ)[53] وقد سماها "القدسية" وأطال نفسه فيها فجاءت في حوالي ثلاثمائة بيت، واعتز الفكون بالمنظومة اعتزازا كبيرا ، وتمثل بها في منشور هدايته كثيرا، لأنه يتفق مع الأخضري في الحملة على"الدجلة" الذين ينتسبون إلى التصوف في ذاته لأنه مثل الفكون، صوفي و لم يكن ضد النعوت الصوفية في حد ذاتها كالولاية والقطبانية وما إليهما، ولكنه كان ضد الأدعياء الذين يخالفون نهج الكتاب

والسنة ، وأنه لم يقبل بغيرهما حكماً في الفصل بين الإدعاء والصدق أو بين "الإفك والصواب" كما يقول في القديسية[54]

واعلم بأن الولي الرباني لتابع السنة والقرآن.

والفرق بين الإفك والصواب يعرف بالسنّة والكتاب.

وفي بعض الأحيان نجده يعتمد على أقوال الصوفية المنصفين، لاستنتاج بعض المقاييس التي يمكن له بواسطتها أن يحكم على "صاحب الإفك من صاحب الصواب" ومعرفة الحقيقة من الإدعاء وفي معنى ذلك يقول [55]

وقال بعض السادة الصوفية مقالة جليلة صفيه.

إذا رأيت رجلا يطير أو فوق ماء البحر يسير.

و لم يقف عند حدود الشرع فإنه مســـتدرج وبدعي.

ويبدو لنا أن الأخضري في قدسيته قد وقف إلى تحديد المنهج الذي يجب أن يقوم عليه التصوف، ويتمثل في الحث على الرجوع إلى الكتاب والسنة لأن طريقة أهل السنة أو السلف الصالح قائمة على إقامة الشريعة أساسا للوصول أو الترقي في سلم الحقيقة، وذلك هو ما يقابل عند الصوفية القيام بالمقامات أساسا للوصول أو الترقي في سلم الأحوال المفضية بالسالك إلى الحقيقة، وبذلك يترقى الولي أو السالك على بيّنة وشرعه، لا على الإدعاء الباطل[56]، ومن أهم الأبيات التي يغمز بها الدعاة الذين يركبون الدين لابتزاز الناس قوله:[57]

كفاك في جميعهم خيانة أن قتلوا العباد بالديانة.

وإذا كان الأخضري قد وظف "قديسته" لانتقاد أباطيل العصر، فإن بعضهم الآخر قد وظف النظم لنشر الطريقة الصوفية التي يعتنقها، وهم الأغلب الأعم، ومن هذه المنظومات "المنظومة الرحمانية" لعبد الرحمن باش

تارزي المتوفي سنة (1222هـ)، التي عرف فيها ناظمها بطريقته ومؤسسها، وبين فيها شروط المريد الذي يسلك الطريقة الرحمانية، وتكلم فيها عن آداب السلوك ،وعلاقة المريد بالشيخ ، وعلاقة الشيخ بمريده، كما بيّن فضائل الطريقة التي وصل الكثير من السالكين بفضلها إلى الحقيقة: حسب رأيه وتتضمن المنظومة فضلا عن ذلك سلسلة الطريقة في الشريعة الحقيقة وقد تولى شرح هذه المنظومة الشيخ مصطفى باش تارزي إبن الناظم بعد وفاة والده وبعد إلحاح كثير من محي الطريقة كما يقول الشارح .[58]

ومنها منظومة ابن عزوز البرجي المنتمي إلى الطريقة الرحمانية ولذلك فمن غير المستبعد أن يكون البرجي قد تأثر بمنظومة أستاذه باش تارزي فألف هو منظومة في التصوف خدمة للطريقة ولمريديه، وقد سماها "رسالة المريد في قواطع الطريق وسوالبه وأصوله وأمهاته" وقد اتخذت منها نموذجا لمنظومات هذا العقد، وألحقتها بسفر للتراجم والمختارات الشعرية، لنعرف من خلالها اللون الثقافي السائد الذي كان يروج له أغلب أصحاب المنظومات لهذا العهد.

وظهر ذلك بخاصة في الشعر الصوفي، عندما يجد المتصوف بعض القدرة على صياغة الشعر ونظمه وتعتبر مجمل القصائد التي وقع عليها اختيارنا صورا صادقة لما كان يسود العصر العثماني الذي صنعته الصوفية من اعتقاد راسخ بالأولياء والصلحاء والأقطاب.

وبكراماتهم وخوارقهم، والتسول بهم ورجاء بركتهم، ورحمتهم، ومنّهم عليهم بالفتح عليهم، كما فتح على أوليائهم، والتقرب بهم، وجعلهم "وسطاء" بينهم وبين من ترجى شفاعته، ومن يتقي غضبه وعقابه، ترجى رحمته ورضاه ومنه.

ولقد لمست عند تعاملي مع شعر هؤلاء، أن أغلب الصوفية كانوا يعتبرون القصيدة المتدينة بعامة والمتصوفة بخاصة، من أقدس المقدسات التعبيرية، بعد القرآن والحديث، فقد فسحوا لها المجال واسعا، لتدخل المساجد من أبوابها الواسعة، ولتتوّج بحضورها محافل المآدب والمناسبات الدينية، وبخاصة منها المدائح النبوية التي ينظر فيها منشئها إلى النبي صلى الله عليه وسلم نظرة روحية خالصة، ولذلك فإن قصائد المدح النبوي هي من أكثر الشعر إنشاداً وإنشاء في هذا العهد، تليها من حيث الكثرة والأهمية، قصائد الاستغاثة والتوسل بالأولياء، ومشايخ الطرق، الأموات منهم والأحياء ثم تأتي بعض الأغراض الأخرى التي لها صلة بالتصوف، كالوقوف على الأطلال ، والغزل ، والرحلة ، هذا فضلا عن بعض القصائد الأخرى كالاخوانيات والمراثي، ووصف الطبيعة، التي لا تخلو في عمومها من النفحات الروصية أو الصوفية.

ولقد بنيت أغلب قصائد المديح النبوي على نظرية "الحقيقة المحمدية" التي يسري سريانها، من قصائد السلف إلى قصائد الخلف، وقد نقل إلينا ابن عمار في رحلته[59] صورا عن الاحتفال بالمولد النبوي في الجزائر إبان العهد العثماني ممثلة في بعض الأخبار، وفي بعض المولديات، والمدائح النبوية ، التي تحتفل بسريان "النور المحمدي" في الوجود، وقد يختلف شكل التعبير عن ذلك من القصيدة إلى الموشح ، إلى السمطية ، لكن الفكرة تظل واحدة.

وتأثرت دولة الجزائر في العهد العثماني بروح العصر، بداية من القرن السابع الهجري الذي تلوّن بالاتجاه الصوفي والطرقي، فقد كان سلاطين الدولة العثمانية متأثرين إلى حد بعيد بالتصوف فكراً وسلوكاً فكان " سلطان القسطنطينية حاميا للطريقة القادرية في الشرق وحتى بغداد ، حيث

كان مركز هذه الطريقة الرئيسي [60] فلا غرابة إذن إذا وجدنا حكام الجزائر الأتراك يهتمون بالإسلام الصوفي وطرقه، خاصة الطريقة القادية وأما العامل الأخر في إتباع الأتراك في الجزائر سياسة صوفية، هو كون التصوف كان قد بسط نفوذه على ربوع البلاد شرقها، وغربها، شمالها، وجنوبها، وإليه يعود الفضل في رفع لواء الجهاد ضد غزوات الصليبين، ولا يمكن في هذا السياق تجاهل الدور الجهادي الذي أداه الصوفية في الدفاع عن الدين الإسلامي وكذا نشره.

فلم يكن التصوف في الجزائر العثمانية شيئا جديدا أو طارئا جلبه الأتراك معهم [61]، بل امتداداً للحركة التي ظهرت خلال حكم الموحدين، وازدادت إنتشارا وتجدراً خلال القرون التي تلت. فمعظم كبار الصوفية ومؤسسي الطرق الصوفية في التاريخ قد ظهروا قبل القرن العاشر هـ/16م، وافق دخول الأتراك إلى الجزائر التفاف الناس حول المرابطين وتقديسهم بل تأليههم .[62] وقد كثروا كثرة ملفتة للنظر استفاد منها الحكام في المجالين:

الأول : مجال الجهاد، فالصوفية والمرابطون كانوا يدعون إلى الجهاد ويجمعون التبرعات والتقت هذه الدعوات مع الأهداف السامية للقرصنة أو الجهاد البحري.

الثاني : يتمثل في إدارة أمور الأهالي، وتسيير شؤون البلاد باستغلال سلطة المرابطين الروحية على الناس والتي بلغت درجة ارتبطت بها حياتهم " فعلى سخط أو بركة المرابط تتوقف سعادة القبائلي الخيالية .[63]

وإذا أضفنا إلى ذلك عامل تدين العثمانيين أنفسهم ، وتأثرهم بالإسلام الصوفي ، أمكننا أن نقف على المبررات التي دفعت الأتراك إلى العناية بالمرابطين فكانوا يعظمونهم ، ويتقربون إليهم "ويتبركون بهم ويطلعونهم على

خططهم ونحو ذلك"[64] ولتشجيعهم كان البشوات يعينونهم رؤساء روحيون على الأعراش والقبائل ، ينتفعون بأعطياتهم وزكواتهم.

فتوطدت علاقات متينة بين العثمانيين والمرابطين ، وعملوا على تجسيدها على الواقع السياسي والحربي ، فاستفادوا من معادات المرابطين للملوك الذين سبق وجودهم العهد العثماني من ذلك مثلا معادات المليانى للزيانيين "وتذكر الروايات أن عروج قد زار المليانى واتفق معه سرا على عدة أمور"[65] كما زار خير الدين وابنه حسن الشيخ أحمد الكبير ولي البليدة، الذي "كان ساكنا في كوخ بوادي رومان ... وبن له مسجدا وبقربه فرنا وحماما لأتباعه المورسك [66].

وكان العثمانيين يحبسون بعضا من أملاكهم وقفا على الزوايا والأضرحة والمساجد " فعلى سبيل المثال نذكر أن الباي حسين بن صالح عام (1121هـ/1807م) عندما خرج في إحدى حملاته العسكرية أخذ على نفسه نذرا يتعهد فيه ببناء دار الولي سيدي علي العريان والسيد محمد بن سيدي سعيد وإصلاح مسجده وتحسين أوقاف يستعين بها على رعاية الطلبة والغرباء وأبناء السبيل [67].

وكانوا يتبركون بهم أيضا ببناء المشاهد والقباب على قبورهم ، وكذا الزوايا فقد عرف " بن الباي محمد الكبير أنه اعتنى ببناء مشهد الولي محمد بن عودة والولي أحمد بن يوسف [68]، كما أعيد تجديد ضريح عبد الرحمن الثعالبي خلال العهد العثماني أربع مرات ، الأولى في عهد مصطفى باشا ، والثانية على يد الوكيل عبد القادر ، في عهد حسين باشا ، والثالثة على يد الباي الحاج أحمد ، أما التجديد الرابع فكان في عهد عبدي باشا [69]

ولزم عن اعتناء الحكام الأتراك لأيالة الجزائر بالمرابطين أحياءا وأمواتا ، أن كثرت الأضرحة والقباب ، بحيث لم تعد مدينة أو قرية تخلو من زاوية أو ضريح أو قبة على أقل تقدير " وعند كل بناية أناس يتبركون ويدعون ويزورون ويتقربون ، ويقيمون الحضرة ويقدمون الهدايا ويذبحون الذبائح ، آتين من كل فج [70] ولم تأت عناية الحاكم العثماني بالمرابطين للإستفادة منهم كأداة سياسية ، بل كانت تعكس إتجاههم الديني والصوفي ، وذلك ما يفسر محاولاتهم الحصول على رضى المرابطين ، تحقيقا لأهداف دينية شخصية ، متأثرين في ذلك كله بالبيئتين الثقافيتين ، العثمانية والجزائرية ، " فكان الدين هو المبرر الأول لظهور العثمانيين في المشرق والمغرب [71] " وهو ما يفسر كذلك زيارتهم للشيوخ ، وسؤالهم الدعاء لهم ، من ذلك ما أورده أبو القاسم سعد الله من أن " بيري رايس العثماني ، يذكر أنه هو وعمه قائدا لغزوة كمال رايس ، نزلا سنة 901 هـ بمدينة بجاية ولجأ إلى زاوية الشيخ محمد التواتي ، الذي كان يبلغ من العمر مائة وعشرين سنة ... وظلا شتائين في بجاية حبّاً في الشيخ التواتي بينما كان يذهبان في الصيف للغزو والجهاد [72]

وكان سلوكا شائعا، منتشرا بين البحارة، حيث كانوا يذهبون إلى الأولياء عند خروجهم للجهاد، تبركا بهم . وظهر في هذا العصر أيضا الإهتمام بتراجم الأولياء والصالحين ويرى سعد الله أن ذلك كان استجابة لنداء بعض الشيوخ، وفي هذا الشأن يورد ابن مريم نصيحة الشيخ السنوسي لأبناء عصره، فيقول : "ليكن اعتناؤك يا أخي بمن تأخر من الصالحين، وخصوصا من أهل بلدك حلولا بالسكن والدفن، أكثر من اعتنائك بمن تقدم منهم [73] محذرا إياهم من مغبة الجهل بأولياء الله، فيكون ذلك سبب

هلاكهم. وبوحي من هذا الرأي إندفع تلاميذ السنوسي ابتداء من القرن العاشر الهجري، يؤرخون للمرابطين والأولياء، والصلحاء المعاصرين على حد سواء [74]

وكانت هذه الفترة تربة خصبة أنبتت أعدادا هائلة من المرابطين وشيوخ الطرق الصوفية، حقيقيون وأدعياء – ويذكر أبو القاسم سعد الله بعض النماذج منهم ، كالقاسم بن أم هاني الذي إتخذ طريقة الشعوذة التي بدأها " بالإكثار من الصوم ، والصلاة ، ولبس الغرارة المرقعة ، وأكل الشعير حتى اشتهر أمره بين الناس [75] في قسنطينة ونواحيها ولكي يتجنب مضايقات الولاة أو منعهم إياه من ممارسة تدجيله كان يلجأ إلى إرشاءهم ليكفوا أيديهم عنه ، وكان أتباعه يذهبون إلى البوادي وينادون بأن شيخهم " يبرئ من العاهات ونحو ذلك من أنواع الكرامات "[76]

ومنهم أيضا محمد بوعكاز الذي جعل من نفسه شيخ طريقة يؤخذ منه العهد وأقام الحضرة "وجاءه الناس بالجبايا من شرق قسنطينة وغربها من إبل وشاه وخيل وبقر [77] وتقرب إليه الأعيان بالهدايا والعطايا لإدعائه بأنه " يولي الخطط المخزنية لأرباب الدولة أو ينتزعها منهم [78]، ومنهم أيضا محمد الحاج الذي ظهر في البوادي " نواحي أم دكال ، وإتخذ لنفسه زاوية وتبعه كثيرون، أخذ منهم الأعشار والجبايا وكان من شدة إعتقاد الناس فيه أنهم قدموا له التعازي عندما مات له أحد القطط [79] بعدما أظهر تأثره لتلك الحادثة.

و لم يكن الناس يهتمون بدرجة العلم لدى مرابطهم، بل استوى عندهم الجاهل والعالم. وكان مقياس الصلاح والولاية في نظرهم هو خرق العادة

من إعلام الغيب، والإبراء من الأمراض خاصة، لأنّ ما كان يرجوه الناس من الآثار النفعية، ويلبيه الولي، هي التي تدل على ولاية الشخص وبركته.

ثالثا: مؤسسات التصوف في الجزائر خلال العهد العثماني:

كان لانتشار الطرق الصوفية في الجزائر وبروز رجال الدين خلال العهد العثماني، دور هام في إبراز مميزات هذا العهد حين ظهرت مؤسسات مختلفة ومتنوعة كل واحدة تكون تابعة لرجل ما أو رجل دين وتسمى على اسمه ويتوارثها من بعد وفاته أبناءه، وقد تنوعت أسمائها إلا أن هذه المؤسسة كانت لها وظائف متعددة ومتشابهة في الغالب تجتمع في أنها تعلم وتثقف الشعب الجزائري، فكانت تدعى بالمؤسسات الثقافية في العهد العثماني ونبرز أهم أعمال وفوائد كل واحدة من هذه المؤسسات فيما يلي:

الوقف:

الوقف هو منع التصوف في رقبة العين التي يمكن الانتفاع بها مع بقاء عينها وجعل المنفعة لجهة من جهات الخير ابتداءاً وانتهاءاً وهذا التعريف هو أصدق تعريف مصور جامع لصور الوقف عند الفقهاء الذين قرروه [80]

ويعتبر الوقف أو الحبس من أهم مظاهر الحضارة الإسلامية والقيم الأصلية إذ يندرج ضمن الصدقات الجارية بإجماع الفقهاء والعلماء المسلمين، فهو يعبر أساسا عن إرادة الخير، والتضامن عند الإنسان المسلم، وقد انتشر الوقف بالجزائر العثمانية عبر حواضرها وأريافها وشمل الأملاك العقارية، الأراضي الزراعية، البساتين، الحدائق، الدكاكين، أفران الخبز، الحنايا الفنادق، العيون، السواقي، الصهاريج وغير ذلك.[81]

وقد كان للوقف وتطوره أثر كبير في نشوء وتطور التصوف وطرقه في الجزائر وله الفضل الأكبر في المساعدة على البناء والاهتمام بباقي مؤسسات التصوف في ذلك العهد ويقوم الوقف على مبدأ شرعي

وعلى صيغة قضائية ملزمة ، فالقاضي هو عادة يقوم بكتابته بصيغة معينة وبحضور الواقف والشهود، مع تحديد قيمة الوقف وتعيين أغراضه وكيفية الاستفادة منه وانتقاله، وعوامل نموّه وتخصيص المشرفين عليه وشروطهم، مع ذكر تاريخ الوقف وتوقيع الشهود والقاضي وبهذا يكون للوقف وثيقة شرعية يستند عليها ويلتزم باحترامها الواقف وأهله المستفيدون، وكذلك السلطة،كما أن للوقف نظام داخلي دقيق، فالوكيل أو الناظر هو المشرف الرئيسي عليه وهو الذي يسهر على تطبيق ما جاء في الوقفية.

ومن شروطه أن الباشا (أو الباي في الإقليم) هو الذي يعين الوكيل بناء على مواصفات معينة كالأخلاق الفاضلة والنزاهة والعلم والسمعة الطيبة بين الناس.[82]

ورغم إعفاء الأملاك الموقوفة من دفع الضريبة إلا أن الحكام العثمانيين قد أيدو انتشارها ووضع بعضهم حداً للتهاون والتحايل على الأوقاف وتصدر من الذي يجرؤ على نهبها لأنّ مداخليها كانت تحمل عنهم ضغوطات، ومتاعب الحياة الاجتماعية والثقافية، وتساهم بقسط كبير في خدمة العملية التعليمية والثقافية وتعمق الضمان والتضامن الاجتماعيين، خصوصا أثناء الاضطرابات التي عرفتها إيالة الجزائر.[83]

ويستعمل الوقف في أغراض كثيرة منها العناية بالعلم والعلماء والطلبة الفقراء والعجزة واليتامى وأبناء السبيل، ومن أهم أغراضه العناية بالمساجد والمدارس والزوايا والأضرحة والعناية بفقراء فئة معينة كفقراء مكة والمدينة

ومثل فقراء الأندلس وفقراء الأشراف أو بطلبة خصوصيين كشباب الأتراك وبفقراء مدينة بعينها أو العناية بمذهب كالوقف على نشر وتدريس المذهب الحنفي ،وهناك من كان يوقف على شراء الزيت للإنارة خلال شهر معين مثل شهر رمضان ...الخ[84]

ومن أشهر مؤسسات الوقف الجماعية إدارة "سبل الخيرات" الحنفية، وكانت مؤسسة شبه رسمية، فهي التي كانت تشرف على جميع الأوقاف المتعلقة بخدمة المذهب الحنفي من زوايا ومدارس ومساجد وموظفين وفقراء، وكانت تديرها جماعة يعينها الباشا بنفسه وقد كان على رأسها سنة (1108هـ) الحاج أحسن أغا بن محمد التركي والحاج إبراهيم بن الحاج حميدة الأندلسي، ومن أبرز ما قامت به، إنشاؤها للجامع الجديد أو الحنفي المسمى أحيانا بجامع الصيد البحري،كما نجد أيضا إدارة أوقاف "مكة والمدينة" التي كانت لا تقل أهمية عن مؤسسة سبل الخيرات، يذهب بعضهم إلى أن هذه المؤسسة أقدم من المؤسسة سبل الخيرات، ولمؤسسة مكة والمدينة أهمية سياسية أيضا، فقد كانت تمثل وجه الجزائر في العالم الإسلامي وكان ركب الحج الجزائري يحمل كل سنة كمية هائلة من النقود والذهب والفضة والألبسة إلى فقراء مكة والمدينة وخدام الحرمين الشريفين.

وتعتبر أوقاف الجامع الكبير وبعض الزوايا بالعاصمة، و أوقاف الجامع الكبير بقسنطينة ومعسكر وتلمسان، والمدينة من المؤسسات الثقافية في المجتمع الجزائري وهي لذلك كانت وسائل للنفوذ والإثراء لمن يتولى وكالتها من العلماء، ونحوهم فأستطاع سعيد قدوره[85] أن يبني زاوية ومدرسة من فائض أوقاف الجامع الكبير كما كانت زاوية عبد الرحمن الثعالبي من الزوايا كثيرة الدخل في العاصمة وكانت جميع الطبقات الاجتماعية توقف عليها ،

بل أن بعض البلدان مثل تونس كانت ترسل إليها حمولة زيت كبيرة سنويا.[86] وهكذا يكون الدور العام لمؤسسة الوقف في الجزائر خلال العهد العثماني واضحا من خلال وظائفها المتعددة، خاصة في خدمة الدين والتعليم كما كانت عنوانا للتضامن الاجتماعي، وكانت تمثل بالنسبة لأوقاف مكة والمدينة الوجه السياسي للجزائر ، أيضا لها الفضل في بناء مؤسسات عدة.

المساجد:

الجامع والمسجد والزاوية ، كان التداخل فيما بينهما من حيث التسمية وهذا لأن المتصوفين أو علماء التصوف كانوا في الأمر يعتمدون على الزوايا في القيام بمختلف أعمالهم، لكن فيما بعد أخذ كل شيخ أو عالم من علماء التصوف يبني مسجدا تابعا للزاوية التي تسمى على اسمه، وبذلك قاموا بتقسيم مهامهم بين المسجد والزاوية ومن هنا أصبح وجود المساجد يلعب دورا هاما في نشر التصوف وطرقه حيث أصبح المتصوفين يعتمدون عليه في إلقاء دروسهم في مختلف العلوم المتعلقة بالحياة الإسلامية ونشر أفكارهم المتصوفة، والتعريف بشؤون الناس، ومعالجة بعض المشاكل والقضايا المتعلقة بالحياة اليومية للمجتمع، وبذلك يكون شيخ التصوف قد أدى رسالته، وجمع حوله أكبر عدد ممكن من الناس ويؤدي هذا إلى نشر طريقة المتصوفة بينهم

والمساجد كانت تحدد أنواعها وعظمتها بناءا على مؤسسها، هناك نوع قام ببنائه الحكام والخلفاء والأمراء والولاة، ويعتبر في نظرهم جزءا من واجبهم الديني لخدمة المجتمع الإسلامي، وكسب عطف الرعية ونجد منها الجامع الكبير بالجزائر، وجامع الباي بقسنطينة وجامع صالح باي بعنابة وآخرون في كل من تلمسان وندرومة ووهران.

أما النوع الثاني فهو من قام بتأسيسه رجال التصوف وذلك ببنائه وصيانته والوقف عليه بهدف التقرب إلى الله، واستمالة الفئات الاجتماعية إليهم، ونشر أفكارهم المتنوعة في الوسط الاجتماعي للمجتمع الجزائري ونجد من بين هذه المساجد، مسجد الصوفي الشهير أبو مدين بتلمسان...[87]

أما النوع الثالث من المساجد قامت بتشييده المؤسسات الخيرية وهو يعتبر بمثابة عمل مكمل لعمل الولاة، الأغنياء والشيوخ، ويلاحظ الكثير من الباحثين بأن هذه المساجد كانت في معظمها متواضعة كما تحدث عن ذلك الوتلاني مقارنا بين المساجد التي بناها الأثرياء والأخرى التي بنيت من طرف الأهالي فهي مبنية بالحجر أو الجبس صوامعها منخفضة، قوائمها ضخمة، فراشها بسيط من الحصير والزرابي، أما المساجد العثمانية فتتميز بدقة البناء، غنية بفراشها وزخرفتها المتنوعة .[88]

وقد أعجب الأوروبيون أيضا بهندسة بناء المساجد في المدن الجزائرية وبرصاتها المرمرية وزخرفتها بالفسيفساء والنقوش العربية وفرشها بالزرابي الغنية والحرير المطرز وهذا ما جعل الفرنسيين يختارون أجمل وأتقن هذه المساجد ويحولونها إلى كنائس كجامع كتشاوة الذي حول إلى كاتدرائية.[89]

ويتضح لنا مما سبق أن عدد المساجد في الجزائر وتنوعها لم يكن قليلا وذلك لاشتراك الأهالي والعثمانيين على السواء في تأسيسها، وكان هؤلاء يهتمون ببناء المساجد بدوافع دينية محضة في أغلب الأحيان كما جعلوها لخدمة المذهب الحنفي، بل إن وظيفة المدرس عندهم كانت لا تخرج عن ذلك أيضا، فمعظم الأوقاف تنص بشأن التعليم على كون المدرس متخصصا في التفسير أو الحديث أو غيرهما من العلوم الشرعية، فكانت الأوقاف تصرف في أغراض دينية كالقيام بشؤون الجامع والخطبة والإمامة و الأذان،

أو بأمور تعبدية صرفة كقراءة تنبيه الإمام والمحمدية ودلائل الخيرات والتعريف، ونحوها، ووجود الأوقاف والمساجد على النحو هذا، كان يعطي للجزائر العثمانية طابعا إسلاميا موحدا، وكان مظهرا من مظاهره ، الجهاد والإحساس المشترك ولعل ذلك يتجلى أكثر في العناية بالزوايا والرباطات والقباب ونحوها من مظهر خدمة الدين وأهله [90]

الزوايا و الرباطات

أخذت تتكاثر منذ القرن الثامن الهجري ، الزوايا في أنحاء البلاد المغربية جميعها منها الجزائر، فكانت الزاوية تشتمل على مسجد تؤدي فيه فروض الصلاة ، وأبنية لسكن الطلبة الغرباء، والفقراء (الزهاد)، وكانت تحبس عليها أوقاف كثيرة ينفق منها على شيوخها الذين ينهضون فيها بدروس العلوم الدينية واللغوية، و على طلابها الغرباء والنازلين بها من الفقراء وكانت بذلك دار للتعليم والعبادة وكثيرا ما كان يدفن فيها الشيخ الصالح الذي أقامها فينصب له ضريح وتقام عليه قبة وتسمى باسمه، ويقصده الناس للزيارة والتبرك به، و يعد مؤسس الزاوية المسؤول الأول عنها، وترث ذريته القيام عليها، ويتبعها موظفون للقيام بالخدمات المختلفة، كما كانت تعنى بإلقاء المحاضرات في الموضوعات والعلوم الدينية المختلفة، وتحول كثير منها خاصة في المدن الجزائرية إلى شبه مدارس عادية.[91]

وأما عن تسمية الزاوية فيرى محمد علي دبوز أنا جاءت إما لإنزوائها عن المدينة باعتبار أن العديد من الزوايا كانت في مناطق قروية، أو لأن وجودها دوما في زاوية أو أطراف المدينة أو ركن مترو بها، ولذلك فالزاوية هي في الأصل ركن البناء، ويطلق اسم الزاوية على طائفة من الأبنية ذات الطابع المعماري الديني، وهي تشبه المدرسة أو الدير، كما سميت بدا الكرامة وذلك

للاهتمام الواسع في المغرب الأقصى في عهد الملك يعقوب الموحدي في مدينة مراكش وبذلك عرفت الزاوية في المغرب العربي بأنها مؤسسة لرؤساء الطرق الصوفية يجتمع فيها المؤيد للذكر والأوراد وإسماعها للآخرين ،كما تقوم أحيانا بعقد صلح بين المتخاصمين وكثرت مع بداية التاريخ الحديث، وخصوصا بعد بداية التحرش الإسباني والبرتغالي على السواحل المغرب العربي وبذلك ذاع صيتها ومن بينها الزاوية الدلائية بالمغرب، وزاوية سيدي عبد الرحمان اليلولي بالجزائر والسنوسية بليبيا (92)

وقد كانت هذه الزوايا تعتمد في استمراريتها وتوسعها على مصادر التمويل، ووسائل التحصيل حيث أنها، لا تستطيع الاستمرار، والعيش دون هذا التمويل وهذا قد يؤدي إلى ضياعها وفنائها، فمعظم الطرق الصوفية لها زوايا يديرها الشيخ الحامل للبركة وهذه الزوايا منها التقليدية المبنية منذ عهد قديم، ومنها الجديدة التي بناها المقدمون المنفصلون عن شيوخهم الأصليين والزوايا القديمة كانت مقرا لبعض المرابطين المشهورين، وهم الوارثون لقداسة جدهم وتركته وسمعته.

ومعظم الزوايا القديمة كانت لها أحباس تتمثل في الأراضي الزراعية، وكانت الأرض تحرث وتزرع وتحصد ثمارها على يد السكان أنفسهم عن طريق تخصيص يوم أو أكثر لها، ومن وراء ذلك كانت تجني الزوايا المال والثمرات، وهناك أيضا العقارات كالدكاكين، والمحلات الأخرى التي يذهب ربعها للمرابط والزاوية، ومن ذلك حق الزيارات أي ما يأتي به الزائر من عطية أو صدقة أو هبة للزاوية وصاحبها (93) وهناك أيضا نوع آخر من المداخيل يحصله في مواسم معينة الشواش والوكلاء باسم كل طريقة، إذ يذهب هؤلاء موسميا، وأمر من الشيخ أو المقدم، لتحصيل المستحق على

الأفراد أو الجماعات من الإخوان وترجع هذه المداخيل في صيانة الزاوية وتغطية أجور المدرسين، ومعيشة التلاميذ .[94]

ولقد لعبت الزاوية في الريف دورا أكثر إيجابية من الزاوية في المدينة، ففي بداية العهد العثماني كانت الزاوية عبارة عن رباطات وينصرون المجاهدين ويطعمونهم في زواياهم، ويتحالفون مع الأمراء المكافحين من أجل الدين وحماية البلاد ولكن الدوافع الجهادية كانت تضعف تدريجيا بعد القضاء على الخطر الخارجي الداهم.[95]

فعاد المرابطون إلى قواعدهم وكانوا على صلة بالشعب أكثر من وصلتهم بالسلطة العثمانية، وكان على هذه السلطة أن تؤيد المرابطين بالعطايا السخية والإعفاء من الضرائب حتى لا تضعف الرابطة بينهما، كما يظهر الدور الإيجابي للزاوية الريفية في التعليم على الخصوص، كما أن الزاوية القشاشية قد تحولت تدريجيا إلى مدرسة عليا أو معهد، ومن الزوايا التي لعبت دورا رئيسيا في نشر العلم في غير العاصمة نجد زاوية الفكون في قسنطينة، زاوية مازونة ذات الشهرة الواسعة ،و بالإضافة إلى الزوايا المنسوبة إلى أفراد، وهناك الزوايا المنسوبة إلى الجماعة، ومن ذلك زاوية الأندلسيين، وزاوية الأشراف [96]

والطرق العاملة في الجزائر والتي لها زوايا وشيوخ ومقدمين تصل إلى حوالي 23 طريقة بعض هذه الطرق نشأ في الجزائر وبعضها كان يتبع الأم في بغداد كالقادرية أو في المغرب الأقصى كالعيسوية، وجاء في إحصاء "لويس رين" سنة 1884أن عدد الطرق، 16 طريقة صوفية في الجزائر، و335 زاوية هامة [97]

وقد كانت الرباطات تشبه الزوايا من بعض الجوانب ،فهي مثلها في خدمة الدين والمجتمع ، ولكن الرباطات كانت تمتاز بأنها قريبة من مواقع الأعداء [98] فكانت تهدف بالدرجة الأولى إلى الدفاع عن السواحل المعرضة دوما إلى الغارات الأجنبية ومن هنا كان المسلحون يعدون المرابطة في الثغور واجبا دينيا مقدسا وجهادا في سبيل الله يتفرغ فيه المرابط إلى العبادة وإفراغ الذهن من شؤون الدنيا، وكانت تقام في تلك الربط حلقات للذكر ،كما كانت مزارا يختلي إليه العلماء والفقهاء ويجتمعون الطلبة للتعليم والتفقه.[99]

وقد لعبت الرباطات دورا كبيرا في فتح وهران الأولى سنة 1119م، والثاني سنة 1205م، واشتهر من علماء الرباطات في الفتح الأول، مصطفى الرماصي، أبو الحسن العبدلي، كما اشتهر من علماء الرباطات أيام الفتح الثاني ،محمد بوجلال ، الطاهر بن حوا ومحمد مصطفى بن زرقة [100]

فالرباطات إذن كانت قلاعا من جهة وزوايا ومدارس متنقلة من جهة أخرى بالإضافة إلى ذلك زاوية الشيخ محمد بن علي المجاجي التي اشتهرت بكونها زاوية ومدرسة ورباطا[101]

المدارس العلمية:

المدارس العلمية مؤسسات ثقافية تتمثل وظيفتها بصورة أساسية في تعليل مختلف العلوم الدينية وغير الدينية، [102] وقد ساهمت هذه المؤسسات في تعليم ونشر أفكار رجال التصوف وبذلك نشر مذهبهم وطرقهم بين الناس، خاصة في المرحلة الأولى من ظهور التصوف أي فترة التصوف النخبوي، وذلك خلال القرون السادس والسابع والثامن الهجري وهي الفترة التي بقي فيها التصوف يدرس في المدارس الخاصة، واقتصاره على طبقة معينة من المتعلمين، وعدم انتشاره بين الطبقات الشعبية وبقائه في الحواضر الكبرى

مثل بجاية، تلمسان، وهران،[103] فكان دور المدارس في هذه الفترة بارزا في حياة المتصوف، لأنها كانت المؤسسة الوحيدة التي يلقى فيها دروسه وأفكاره، ومذهبه فينجم عن ذلك تخرج رجال متصوفين كبار في المجتمع الجزائري.

وبانتشار هذه المدارس في الجزائر أخذ التصوف وطرقه في التوسع والانتشار في الوسط الاجتماعي الجزائري، فكان لا يخلو منها حي من الأحياء، ولا قرية من القرى في الريف، بل أنها كانت منتشرة حتى بين أهل البادية والجبال النائية، وبفضل هذه المؤسسة انتشر التصوف في الجزائر، وانتقل من فترة التصوف النخبوي إلى التصوف الشعبي وذلك لانتشاره بين العامة والخاصة ، الأغنياء منهم الفقراء، في المدن الكبرى وفي الأرياف وظهرت بذلك الطرق الصوفية الكبرى في مختلف أرجاء القطر: كالقادرية، الشاذلية، التجانية وغيرها.[104]

وهذا ما جعل جميع الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني ينبهرون من كثرة المدارس بها وانتشار التعليم وكثرة الطرق الصوفية بها، وندرة الأمية بين السكان، وقد عد بعضهم العشرات من هذه المدارس بالإضافة إلى المساجد والزوايا والرباط التي تحدثنا عنها والأوقاف أيضا .[105]

وقد اشتهرت تلمسان عاصمة الدولة الزيانية قبل مجيء العثمانيين بوفرة المدارس والعلماء رغم تدهورها السياسي فالإضافة إلى المدارس الابتدائية كان بها على الأقل خمس مدارس ثانوية وعالية، وهي التي أشاد بها الرحالة المصري عبد الباسط بن جليل والكاتب المغربي الحسن الوزان صاحب الكتاب "ليون الإفريقي" الذي أشاد على الخصوص بعناية أهل تلمسان بتشييد المدارس والإنفاق عليها، كما وجد الفرنسيون، بعد احتلال تلمسان

خمسين مدرسة ابتدائية ومدرستين للتعليم الثانوي والعالي وهما مدرسة الجامع الكبير، ومدرسة أولاد الإمام كما أن قسنطينة كانت المدارس الابتدائية كثيرة الانتشار بها، حيث كان عدد المدارس الابتدائية بها عند دخول الفرنسيين حوالي تسعين مدرسة وهو العدد الذي جعل بعض الباحثين يحكمون بأنه يدل على أن كل طفل ذكر بين السادسة والعاشرة كان له مكان في المدرسة أما التعليم الثانوي والعالي فقد وجد الفرنسيون له في قسنطينة سبع مدارس(106).

أما مدينة الجزائر فقد تضاربت حولها الأقوال في عدد المدارس الابتدائية والثانوية والعليا الموجودة بها خلال العهد العثماني، ويعود ذلك بصورة أساسية إلى إدخال المساجد والزوايا في إعداد المدارس، وكثيرا ما يتحدث البعض عن مراكز التعليم الثانوي والعالي ولا يتحدثون عن المدارس الابتدائية، وهذا ما أشار إليه التمغروطي، وابن زاكور، بوجود المدرسة القشاشية كما تحدث ابن حماد القشاش عن مدرسة الجامع الكبير وهي من المنتسبين إلى مدينة الجزائر، وقدر عدد المدارس بمدينة الجزائر عند دخول الفرنسيين إليها بحوالي 100مدرسة ابتدائية وغير ابتدائية (107).

المكتبات:

تعتبر المكتبات مؤسسة ثقافية هامة في حياة المتصوف حيث أنها كانت الوسيلة الوحيدة والمكان الوحيد الذي يمكن فيه لشيخ التصوف أن يبلغ من خلاله رسالته وذلك عن طريق ما ألفه من كتب ينشر من خلالها أفكاره ومذهبه وعن طريق وضع هذه المؤلفات في المكتبة يكون المتصوف قد حقق نجاحا كبيرا في إيصال ما يريده لمختلف الفئات خاصة منهم الطلبة.

وقد كان بعض المتصوفون يملكون مكتبات خاصة بهم ،وتسمى على اسمهم وتكون تابعة للمسجد والزاوية التي بناها ، فيضع فيها ما ألفه وما أنتجه من كتب في التصوف والعلوم المختلفة.

وبانتشار المكتبات في كامل أنحاء الجزائر أخذ التصوف ينتشر معها وأخذت الكتب والمؤلفات الصوفية تتنوع وتنتشر بمختلف كتّابها من رجال التصوف، فنجد من أهم المؤلفات أو الكتب الصوفية" المقدمات للمتصوف الكبير السنوسي و"العلوم الفاخرة للمتصوف عبد الرحمن الثعالبي...وغيرهم[108] فكان الهدف لهذه المؤلفات، هو نشر التصوف وطرقه في كامل أنحاء الجزائر والمغرب العربي، و لم تكن هناك من وسيلة إلا بناء مؤسسة ثقافية يقتصر عملها على إيصال هذه المؤلفات إلى مختلف الفئات، وبالطبع كانت هذه المؤسسة تتمثل في المكتبة والتي لعبت دورا هاما في نشر التصوف وطرقه في الجزائر العثمانية.

ويمكن تقسيم المكتبات في الجزائر إلى عامة وخاصة فالعامة هي تلك المكتبات الملحقة بالمساجد والزوايا والمدارس، أما المكتبات الخاصة فكثيرة وليس من السهل حصرها غير أن بعض العائلات قد اشتهرت لطول عهدها بالنفوذ، بالمكتبات دون الأخرى فعائلة الفكون بقسنطينة كانت لها مكتبة خاصة ، أصبحت مضرب الأمثال بعد الاحتلال الفرنسي...وغيرها كثير[109]

ثالثا : موقف الطرق الصوفية من النظام التركي (العثماني) بالجزائر

إنً المتأمل لتاريخ العلاقة بين الحكام الأتراك والجزائريين ، يلاحظ أن هاته العلاقة كانت مجسدة في سلطة مشايخ الطرق الصوفية، وأنها لم تكن

ذات وجهة واحدة و لم تكن قارة، إذ يمكن نميز بين ثلاثة مواقف واضحة لدى رجال الطرق الصوفية في تعاملهم مع الإدارة العثمانية.

القسم الأول: ويمثل رجال ومشايخ الطرق الذين أيدوا الوجود العثماني منذ البداية ، إذ أبدى هؤلاء تحالفهم مع العثمانيين ضد الإسبان واستمر بعضهم في مساندتهم لهم حتى أواخر عهدهم.

ومن مثال ذلك ما جاء في رحلة بيري رايس العثماني، أن الشيخ محمد التواتي كان يحمي مدينة بجاية من الإسبان، وأنً زاويته كانت ملجأ للمجاهدين ونزاة البحر [110]، إذ لجأ بيري رفقة عمه كمال رايس إلى زاوية الشيخ محمد التواتي، وطلب منه المساعدة سنة 301 هـ [111]، فما كان منه إلا أن رحب بهما وقدم لهما يد العون .

وعن عائلة بن القاضي التي تسكن إمارة كوكو وجبال جرجرة، فقد قدم شيخهما الحسن بن القاضي يد المساعدة للعثمانيين، إذ قاد هذا الأخير، الوفد الذي أرسله خير الدين إلى سلطان العثماني سليم الأول ليقترح عليه ضم الجزائر إلى الدولة العثمانية ، ولو أنه فيما بعد غيَّر موقفه [112]

ومن جهة أحمد بن يوسف الملياني نجده قد قدم العون لعروج الذي استغل فرصة الخلاف بين الزيانية والمليانة [113] من أجل ضم حليف له يساعده على الاستيلاء على تلمسان، إذ أن عروج قد زار دار الملياني واتفق معه سرا، على عدة أمور، منها إعلان الملياني وأتباعه تأييدهم للعثمانيين، بينما تعهد عروج بعدم التعرض للملياني ولنسله ولمن تعلق به[114].

وقد أشهر هذا التحالف والتزم به الطرفان طيلة العهد العثماني ، غذ أن خير الدين باشا قد أرسل من الجزائر هدايا ثمينة إلى الملياني بعد نجاحه في ضم تلمسان، كما اعترف بابن الملياني خليفة لوالده في رئاسة الطريقة الشاذلية

ونشر دعوتها ، ويقال أن حسين باشا كان متزوجا من إحدى حفيدات المليانى.

ويذكر الشيخ الدين في مذكراته أن شيخ العرب أحمد بن علي بوعكاز السخري ، ساند الأتراك في حربهم ضد الإسبان سنة 1515 [115] وشاركت قبيلة الذواودة في هذه الحرب بجيشين، أحدهما رابض في شرق مدينة الجزائر، وثانيهما رابض في غرب العاصمة [116].

وفي قسنطينة نجد أن عبد الكريم الفكون، قد استماله الأتراك إلى جانبهم من أجل تحقيق نفوذهم في المنطقة، بعد أن التمسوا منه الموافقة والتي لف معهم [117]، وقد ساعدهم هذا التحالف على التوغل في الداخل ، وتوفير الطاعة بالمناطق التالية، والتقدم نحو الجنوب الشرقي في محاولة لإنهاء تحصن أولاد صولة بجبال الزاب [118].

وقد كان مقابل ذلك هو حصول عائلة الفكون على امتيازات كبيرة، خاصة في المجال الاقتصادي، فتمكنت من الارتقاء في الحياة والسلطان ومن بين هاته الامتيازات ما يلي:

-قيادة بعثة الحج، مع الحق الكامل، في اختيار أعضاء القافلة والاستفادة من هذه الملهمة ماديا بقدر الإمكان.

-إدارة جميع أوقاف الجامع الكبير دون مراقبة ولا محاسبة.

-إعفاء جميع الأوقاف التابعة للعائلة، وجميع أملاكها في المدينة وفي الريف من الضرائب ومن كل الغرامات.

-الإعفاء أيضا من الغرامات والسخرة، وحق دخول المدينة والخروج منها، وحق توفير الطعام والسكن.

-استفادة العائلة من نيل الهدايا والعطايا العقارية وغيرها، ومن حق العشر من الزرابي والخشب المحول من نواحي الأوراس إلى قسنطينة ومن حق المكس على أسواق الخضر والفواكه. ومن جهة أخرى فإن جميع من يلتجئ إلى العائلة سواء في المترل أو غيره، ولو خارج المدينة، مصون لا يتعرض لأي عقوبة ولو ارتكب أكبر جريمة [119].

يبدو من خلال علاقة الحكام العثمانيين بعائلة الفكون، أنها علاقة قائمة على المصلحة الخاصة بكل طرق، إذ نستشف ذلك من خلال الامتيازات التي منحت للعائلة، خاصة تلك المتعلقة بالأمان المطلق للملتجئ إلى عائلة الفكون، حتى وإن كان مجرما، فكيف يقبل رجل دين وصوفي يخاف الله ومتمسك بالإسلام كعبد الكريم الفكون هذا الامتياز؟.

أما في عنابة فقد تآزرت عائلة ساسي البوني مع العثمانيين، ومدت لهم يد المساعدة ، إذ توطدت بينهم علاقة حميمة على مرُ الزمان [120] وتتجلى هذه العلاقة من خلال الرسائل المتبادلة بين محمد ساسي البوني ويوسف باشا الجزائري من جهة، وبين أحمد بن قاسم البوني وأحمد بكداش من جهة أخرى [121]

وفي منطقة الشلف نجد أن العمانيين قد أتبعوا مع الشيخ محمد بن المفوفل[122] نفس الطريقة التي اتبعوها مع الشيخ المليانى، إذ كان للمفوفل نفوذ على قومه وكان من ؟؟؟؟؟ الروحانيين، لذلك كان أول من قصده العثمانيون في هذه الجهة وطلبوا إليه مبايعتهم ومناصرتهم على الزيانيين، ومباركة حملتهم عليها، فكان لهم منه ما أرادوا [123]

ومهما يكن من درجة التأكيد التي أبداها رجال الصوفية حيال الوجود العثماني في الجزائر فهي مبنية على أساسين:

الأول يتمثل في استنجاد الطرقيين بالقوة العثمانية التي رفعت لواء الجهاد ضد الحملات الصليبية بهدف التصدي لهذا الخطر الذي كان يهدد الكيان الإسلامي في الجزائر ، والذي مثله كل من الثعالبي الذي تحالف مع العثمانيين وعقد معهم معاهدة لصد الإسبان الذين كانوا متمركزين بصخرة بنيون [124].

وسالم التومي الذي استقبل عروج أثناء قدومه إلى مدينة الجزائر لنصرة أهلها وكذا كل من محمد التواتي وساسي البوني كما سبق ذكرهم

أما الأساس الثاني الذي ارتبط به تأييد السلطة العثمانية ، فهو يتمثل في سياسة التحالفات التي لجأ إليها الحكام بغرض إحكام سيطرتهم على أكبر عدد ممكن من المناطق وذلك.

1- إما بإعطائه امتيازات كبيرة وواسطة للمشايخ مثل ما حدث مع عبد الكريم الفكون[125] وكذا قبيلة المعاتقة [126]، التي أعفاها الباي محمد بن علي من الضرائب كضريبة العشور والزكاة.

وحصل آل مقران على وضع خاص إذ اتفقوا مع الإيالة في بني عباس في نهاية القرن 17م على توليهم جميع الأخشاب من منطقة بجاية وتحميلها إلى الجزائر، وفي المقابل يتولون إدارة الإقليم الذي يقطنونه.

وفي سنة 1682[127] اقتطع الداي حاج محمد إقليم مجانة من باي قسنطينة ومنح إدارته لعبد القادر بن سيدي محمد أمقران.

2- وإما عن طريق المهادنة أو المصالحة، إذ أن صالح باي 1725 – 1792 الذي حكم بايلك الشرق منذ 1771 [128] انتهج هذا الأسلوب مع الكثير من القبائل المتواجدة في إقليمه، واستطاع بذلك استمالة الكثير من رجال الدين والمرابطين والصوفيين، بعد أن صفى له الجو مع العديد من الأعراش والبطون

التي ضمها إليه مثل سكان جبال عمور وبلاد الميزاب ومنطقة الأغواط وتقرت كما عرف يوسف باشا الذي كم الجزائر ما بين 164 –1650[129] أنه كان من الحكام الذين يقربون العلماء ويعفون المرابطين والأشراف من دفع الضرائب ويهادونهم ويكرمونهم.

وذكر عنه أيضا أنه سافر إلى بايلك الشرق واجتمع مع مراد باي وكبار ورجاله وقرب إليه العلماء ورجال الدين أمثال عائلة الحملاوي ، وقد استشارهم في كثير من القضايا[130]

القسم الثاني: لقد أبدى هذا الصنف من رجال التصوف معارضة شديدة على النهج الذي عمل به العثمانيون، واعتبروه تسلطا ووصفوه بنعوت شديدة ومن ثمة أشهروا في وجوههم المقاومة، ومن أمثلة ذلك:

ما قام به أحمد بن ملوكة التلمساني، الذي عارض القائد عروج عند دخوله مدينة تلمسان ونظرا لسياسته أنها عدوان على التلمساني ولا بد من التصدي لها وحاربها [131]، إذ يذكر أبو القاسم سعد الله في ذلك أن معظم المرابطين في تلمسان ونواحيها كانوا ضد الأتراك، ومنهم شيخه موسى اللاتي، والشيخ عبد الرحمن اليعقوبي [132]

ومن بين المعارضين أيضا الحسن بن القاضي الذي كان في البداية من المؤيدين، ثم ثار هذا الأخير ضد خير الدين سنة 1520م وتمكن من إخراجه من مدينة الجزائر، والسيطرة عليها لفترة خمس سنوات، ثم استرجعها منه خير الدين سنة 1525 [133]

وكذلك حفيدة عمر بن القاضي، الذي كان أيضا بمنطقة بني خيار ببلاد زوارة[134]، ودفعه ذلك للتحالف مع الملك الإسباني فليب الثالث في جوان 1603 [135] بغرض التصدي للانكشارية لكن المرابط سيدي منصور كشف

المؤامرة ، وكان معاديا للتقارب بين عائلة بن القاضي و الإسبان واستقبل الجيش التركي في منطقة بني حنادشة سنة 1618[136] وتعاون معه على ابن القاضي والإسبان.

هذا وقد عرفت مرحلة عثمان باشا (1766- 1791)[137] تمردات مختلفة ، عدم الطاعة والانصياع للعثمانيين ،ـــ ومن أمثلة ذلك ما أقدم عليه سكان جبل فليسة بمنطقة جرجرة ببلاد القبائل الذين خرجوا عن طاعة الأمير ، ومنعوا الزكاة وحرموا البنات من الإرث[138].

وفي سنة 1789[139] بعث إليهم عثمان باشا بفرقة تأديبية، ولكنها وجدت مقاومة عنيفة وانهزمت في الجولة الأولى والثانية و لم تستطع الانتصار عليها إلا في الجولة الثالثة بعد أن عزّز الباشا جنده.

كما عرفت مرحلة الدايات (1671 – 1830م) مع مستهل القرن التاسع عشر، أخطر انتفاضة شعبية قادتها الطريقة القادرية بقيادة زعيمها ابن الشريف الدرقاوي[140] وقد كان من أسباب ودعائم الثورة الدرقاوية:

السياسة الضريبية القاسية التي فرضت بالقوة على الفلاحين، وأثرها الكبير في تذمر الثوار.[141]

عداوة ومحاربة بايات وهران لرجال التصوف والطرق الدينية، إذ يذكر في ذلك الناصري أن الداي مصطفى طالب بتضييق الخناق على الدرقاوية، وأمر بإلغاء القبض على زعيمهم عبد القادر بن شريف الذي جال الصحراء استعدادا للثورة، أما عن دعائم هذه الثورة فقد تمثلت في سلاطين المغرب الأقصى، بغرض إضعاف شوكة العثمانيين في الإقليم الغربي من الجزائر الذي كان حلم المغاربة منذ سقوط الدولة الموحدية.[142]

وقد استغرقت ثورة ابن الشريف سنوات عديدة، تمكنت من خلالها من دحر الجند العثماني، والوصول إلى مشارف وهران، لكن هذه الثورة كان مآلها الفشل بعد أن عين داي الجزائر الباي محمد بن المقلش سنة 1805[143] على القطاع الوهراني، الذي رجّح كفّة الميزان لصالح الحكومة المركزية.

وهناك ثورة أخرى كانت متزامنة تقريبا مع الثورة الدرقاوية، ويتمثل في ثورة ابن الأحرش ببلاد الشرق في منطقة الشمال القسنطيني.[144]

وقد وضع ابن الأحرش لثورته أسلوب الرعاية والترشيد، إذ استقر بزاوية الزيتون بضواحي مدينة جيجل أين طالب بقيام حكومة على حساب بايلك الشرق، وأمر بمهاجمة الحاميات التركية، ووصلت طلائعه إلى ضواحي قسنطينة خلال 1804م واستطاع دخولها والاستلاء على كثير من مخازنها.[145]

وخلال السنتين (1806- 1809)[146] تواصلت المعارك من جديد بين ابن الأحراش ومعارضيه في سهول بجاية وضواحيها، ولكنه فشل أمام قوة الباي وجيشه، ولم يجد ابن الأحرش إلا التوجه نحو الغرب الجزائري وتعزيز العلاقة مع الطريقة الدرقاوية، وكان معه حلفاؤه أولاد عطية، لكن العثمانيين استطاعوا إطفاء نار الفتيل وأخمدوا ثورة ابن الأحرش المتعاونة مع الدرقاويين.

ومن جهتها الطريقة التيجانية، أعلنت هي أيضا معارضتها للسلطة العثمانية إذ قاد شيخها محمد التيجاني سنة 1806[147]، هذا الأخير الذي عزّز علاقته مع سكان منطقة غريس بالقطاع الوهراني، الذي بايعه أهلها سرا، الأمر الذي أقلق السلطة العثمانية، إذ وقع هجومين بين الطرفين، أحدهما مع باي وهران بمنطقة عين ماضي بضواحي الأغواط، والثاني مع باي التيطري

الذي أدى بالتجاني إلى الانسحاب من الجزائر مع أهله وأتباعه وخروجهم إلى بلاد المغرب الأقصى.[148]

رغم إخماد ثورة ابن الأحرش وهجرة الشيخ التيجاني، إلا أن المعارضة ظلت سارية في العديد من مناطق الوطن خصوصا نهاية القرن 18م فمعارضة رجال الدين والمتصوفة لم تتوقف يوما، إذ أنه أيام تولي حسين باشا آخر دايات الجزائر الحكم منذ 1818م[149]، شهدت هذه الفترة اضطرابات كثيرة في مناطق

مختلفة من الوطن قادتها قبائل ثائرة ومتحالفة مع رجال الطرق، ففي منطقة القبائل مثلا وقفت اضطرابات خلال أكتوبر من سنة 1823م[150].

هذا وقد قام سكان بجاية بأسر المفتي الحنفي العثماني وجعلوه رهينة، وعندما تدخلت الدولة العثمانية المركزية، اتصلوا بالقناصل الأوربية لطلب الحماية.[151]

من خلال ما سبق يتضح لنا أن جل الثائرين على السلطة العثمانية قد ظهروا خلال منتصف القرن 18م، ذلك إذا استثنينا البعض منهم الذين أيدوا المعارضة منذ بداية ظهور الإخوة عروج على مسرح الأحداث السياسية بالجزائر. والسبب في ذلك هو فقدان الثقة بين الجزائريين والسلطة العثمانية وذلك راجع إلى:

إرهاق الأهالي حيث انكمشت موارد البحرية التجارية مع مطلع القرن 17م، والتي كانت المورد الأساسي لخزينة الدولة، فكلما قلت موارد القرصنة، كلما لجأت حكومة الأتراك إلى زيادة استغلالها لطبقة الفلاحين الجزائريين، وذلك بزيادة عبأ الضرائب، وكذلك فساد النظام العثماني، وعزلته عن الرعيّة والمجتمع.

القسم الثالث، كان هذا القسم دوما معتدلا، يكتفي بإعطاء النصائح والتوجيهات للسلطة العثمانية، من دون أن يصل إلى أي تصادم معها، فلم يؤيدوا العثمانيين كل التأييد و لم ينقموا عليهم كل النقمة.

ومن أمثلة ذلك "الشيخ العبدلي" في إقليم تلمسان، الذي كان على علاقة بالقائد العثماني محمد بن سوري إذ كان يعظه ويطلب منه مطالب في صالح أهل البلاد.(152)

أما عن الشيخ الشليحي فقد كان له دور كبير في تغيير في موقف باي قسنطينة حسن بوحنك اتجاه الأولياء والصالحين، فبعد أن كان عنيدا متمردا عليهم، أصبح بفضله كريما ومتصالحا معهم.(153)

إذ أنه أعطى للمرابط الشليحي قصرا في المكان المعروف باسم الأربعين شرين، الذي أصبح يعرف فيما بعد باسم دار الشليحي، فيما أنشأ له زاوية في أولاد عبد النور وأعفاها من الضرائب.

فكثيرا ما كان العثمانيون يكثرون من الهدايا والعطايا للمرابطين بهدف استمالتهم وتوظيفهم عند الشدة ضد المعارضة.

الأمر الذي جعل البعض من رجال الدولة يشترون صمت هؤلاء، من جهة والمرابطين بدورهم يرثون الولاة ليسكتوا عن ابتزازهم أموال الناس والتعدي على حرمات الرعيّة(154)، كما نشير أيضا إلى أن الفساد الناتج عن التحالف بين هؤلاء الحكام،لم يقف عند هذا الحد بل تعداه ليصل درجة النصب والاحتيال بفرض الثراء في السلّم الاجتماعي(155). ومثال ذلك ما فعله أحمد بوعكاز مع أهالي قسنطينة، بعدما أدعى الطريقة والمشيخة وإقامة الحضرة أمام صمت الإدارة العثمانية.(156)

وهكذا اعتمد العثمانيون بصفة أساسية على هذا الجناح من المرابطين في محاربة أي محاولة إصلاحية أو تجديدية، أو ثورية مقابل منحهم امتيازات وإعفاءات ضريبية، وتسهيل علاقتهم مع حكومة الأوباق وأنصار الباب العالي.

ومهما يكن من موقف رجال الصوفية وعلاقتهم بفئة الحكام العثمانيين والتي تتميز بالتباين والاختلاف (مؤيد، معارض، وسط) فإن لهؤلاء سلطة سياسية ونفوذ كبير على المجتمع الجزائري، الأمر الذي جعل حكومة الأتراك، تبدي مخاوفها من هاته السلطة الصوفية، وتحسب لها ألف حساب، فنجدها تلجأ إلى شتى الوسائل من أجل كسب ولائها.

قائمة المراجع :

1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص: 1، 464
2- رحلة القصادي وابن مريم ، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص: 74
3- الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص: 103، 106
4- المرجع نفسه، ص: 2، 106
5- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع سابق، ص: 470
6- محمد بن علي شعيب، أم الحواظر في الماضي والحاضر، تاريخ قسنطينة، مطبعة البعث، قسنطينة، 1980 ، ص : 133، 134
7- أنظر، الجزائر في عهد رياس البحر، ص: 31
8- الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج 2، المرجع سابق، ص: 489، 490
9- أبو القاسم سعد الله، مجلة الثقافة الجزائرية، عدد 51، 1979، ص: 21، 29
10- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المرجع سابق، ص: 741
11- ابن مريم، المرجع سابق، ص: 287، 288
12- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع سابق، ص: 471
13- أنظر ترجمته وشعره الصوفي في تعريف الخلف برجال السلف.

14- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المرجع سابق، ص: 198
15- المرجع السابق، ص: 464
16- بدأت ملامح الشعور بالوطنية تظهر في كتابات بعض الجزائريين أثناء العهد العثماني، قال الورتلاني: "وصلنا مدينة قسنطينة وهي مدينة في وطننا..." "الرحلة الورتلانية"، ص: 685
17- أنظر: عبد القادر المشرقي، الجزائر بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين،تحقيق: محمد بن عبد الكريم، دار مكتبة الحياة، بيروت ص ص: 8، 13.
18- المجلة الإفريقية، عدد 31، جانفي، 1862، ص: 16
19- المرجع السابق، ص: 16
20- المرجع السابق، ص: 17
21- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المرجع سابق، ص: 84، 85
22- مثل عائلة الفكون، بقسنطينة
23- عامر النجار، الطرق الصوفية في مصر، دار المعارف، مصر ط3، 1986، ص: 42
24- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع سابق، ص: 183
25- المقدم: هو المريد الذي يقدمه الشيخ على غيره من المريدين لينوب عنه في القيام بكل ما يخص شؤون المشيخة أو الزاوية
26- الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف،مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط2، 1980، ص: 78
-27سميح عاطف الزين، الصوفية في نظر الإسلام، دار الكتب اللبنانية، ط3، 1985، ص: 445
-28ابن مريم، المرجع سابق، ص: 110
-29سميح عاطف الزين، الصوفية في نظر الإسلام، المرجع سابق، ص: 544
-30المرجع نفسه، ص: 114
-31سميع عاطف الزين ، المرجع السابق ص: 546، 548
-32المرجع نفسه ص: 117
-33انظر ترجمته في الرحلة الورثلانية.
-34 أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ،ص:261،264،266.

-35 انظر أبو القاسم بن عبد الجبار الفجيحي، الغريد في تقييد الشريد وتوطيد الوبيد، تحقيق وتقديم، عبد الهادي التارزي مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء، المغرب، 1983، ص:18.

-36انظر أبو القاسم سعد الله،المرجع السابق ،ص:287.

-37نص الرسالة في أبحاث و أراء في تاريخ الجزائر،ص: 208..

-38انظر : الفكون ، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية :ص:11وانظر :تاريخ الجزائر الثقافي ،12،ص:287.

-39انظر إسماعيل العربي ، الدراسات العربية في الجزائر ،ص:67.

-40انظر : الفكون ، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، ص:11 وانظر : تاريخ الجزائر الثقافي ،ج1،ص:287.

-41أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الزائر الثقافي ،ج1 ، المرجع السابق ،ص:312.

-42انظر ، إسماعيل العربي ، الدراسات العربية في الجزائر ، ص:67.

-43انظر الدراسات العربية في الجزائر ،ص:67. وانظر عبد المالك مرتاض ، فنون النشر الأدبي ،ص:33

-44لأن المقام لا يتسع لها هنا.

-45محمد بن أبي تشنب ، البستان ، المطبعة التعالبية ، الجزائر ،1908 ،ص:06.

- 46في مؤلفه : منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية ، تحقيق ، أبو القاسم سعد الله ،دار الغرب الإسلامي ،بيروت ،ط1 1،1987،ص:31.

-47المصدر السابق ،ص:32.

-48المصدر السابق ، ص:35،37.

-49الورثلاني ، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخيار.

-50انظر: نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب لإبن عمار.

-51حققها ونشرها : أبو القاسم سعد الله ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، 1983.

-52عبد الله العياشي ، طبع جحري ، فاس (1316هـ) (مغربي الأصل ، من تلاميذ الفكون.(

-53أنظر منشور الهداية ، للفكون ،ص:118.

-54الفكون ، منشور الهداية ، المرجع السابق ، ص:112.

-55المصدر نفسه ،ص:122.
-56راجع أبياتا في ذلك، منشور الهداية ،ص:124وغيرها.
-57المصدر السابق ،ص:132.
-58أنظر ترجمته في تعريف الخلف برجال السلف للحفناوي.
-59أنظر : المنشور كاملا في مذكرات الحاج أحمد الزهار،ص.176.
-60ألفرد بل ، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ، ترجمة عبد الرحمن بدوي دار الغرب الإسلامي ، بيروت ،ص، 430.
-61يقول بروكلمان كارل عن حياة الناس في القسطنطينية والمناطق الواقعة تحت الحكم العثماني " خضعت حياة الجماهير الدينية لتأثير مشائخ الطرق الصوفية المنتشرة انتشارا واسعا في آسيا الصغرى.
-62فوجة حمدان بن عثمان، المراة ، تعريب وتعليق ، محمد العربي ، تونس ،1982،ص2.
-63المصدر نفسه ، ص:57.
-64أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1 ، مرجع سابق ، ص: 469
-65نفس المرجع السابق ، ص: 470
-66حاج صادق محمد ، مليانة وولها سيدي أحمد بن يوسف ، مطبعة الجزائر ، الجزائر ، 1989 ، ص:158
-67سعيد وني ، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر ، (العهد العثماني) ، الجزائر ، 1984 ، ص:153.
-68أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1 ، مرجع سابق ، ص:475.
-69ابن ميمون محمد الجزائري ، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية ، تحقيق وتعليق بن محمد الكريم محمد ، الجزائر ، ط1 ، 1972 ، ص: 349.
-70أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1، مرجع سابق ، ص:472
-71المرجع نفسه ، ص: 467
-72المرجع نفسه ، ص:469
-73ابن مريم أبو عبد الله ، البستان في ذكر أولياء تلمسان ، مرجع سابق ، ص: 06.
-74أبو القاسم سعد الله ، مرجع سابق ، ص: 477.
-75أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1 ، مرجع سابق ، ص: 489.

-76المرجع نفسه ، ص:489.
-77المرجع نفسه ، ص:476.
-78المرجع نفسه ، ص:489.
-79المرجع نفسه ، ص:490.
-80محمد أبو زهرة ، محاضرات في الوقف ، مطبعة أحمد على مجتمرة ، 1959،ص:07.
-81أحمد مريوش ، الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني ، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر :1954، الجزائر ،2007،ص،28.
-82أبو القاسم سعد الله ، مرجع السابق ،ص ص: 227،229.
-83أحمد مريوش ، المرجع السابق ،ص ص:28،29.
-84أبو القاسم سعد الله ، المرجع سابق ،ص ص:230،231.
-85سعيد قدورة يعد من أعلام الجزائر خلال القرن 17تولت عائلته الإفتاء المالكي بالجامع الكبير الآخر من قرن (المزيد أنظر : أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ،ج1،ص:357.
-86أبو القاسم سعد ، المرجع سابق :ص ص:238،239.
-87أحمد مريوش ، مرجع سابق ،ص:13.
-88المرجع نفسه ،ص:14.
-89أبو القاسم سعد الله ، مرجع السابق ،ص:252.
-90المرجع نفسه ،ص:262.
-91شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات (الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا، السودان)دار المعارف، القاهرة (ب ت)،ص:80.
-92أحمد مريوش ، مرجع السابق ،ص ص:143،150.
-93أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق، ج4 ،صص:284،285.
-94المرجع نفسه ،ص:285.
-95المرجع نفسه ،ج1، ص:268.
-96المرجع نفسه ،ص ص:262،269.
-97نفس المرجع ،ج4،ص ص :291،292.
-98أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق ،ج1،،ص :272.

-99حميد بن خميسي، نشأة التصوف الفلسفي في المغرب الإسلامي الوسيط ، دار الثقافة العربية الجزائر ،2007،ص:20.
-100أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص:272.
-101المرجع نفسه ،ص:273.
-102أحمد مريوش ، المرجع سابق ،ص:15.
-103مختار حبار ، المرجع السابق ، : 16.
-104مختار حبار ، المرجع سابق ،ص: 50.
-105أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج1، ص:273.
-106المرجع نفسه ،ص ص :274،275.
-107أحمد مريوش ،المرجع السابق ،ص:16.
-108أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ،ص:100.
-109المرجع السابق ،ص:297.4
-110أحمد مريوش ، مرجع سابق ، ص:121
-111أبو القاسم سعد الله ، مرجع سابق ، ج2 ، ص: 464
-112بعد أن كان إبن القاضي مؤيد لدولة الأتراك إلى الجزائر ، وثار ضد خير الدين وأخرجه من مدينة الجزائر سنة 1520 م مما أدى بخير الدين إلى الانسحاب إلى جيجل ، وبعد 5 سنوات تمكن من الانتصار عليه ، وفرض غرامة على أتباعه.
-113تذكر بعض الروايات أن الخلاف بين المليانى و الزيانيين كان سببه زيادة نفوذ الطريقة الشاذلية التي تزعمها المليانى محاول الزيانيون الحد من نشاطه بإقدامهم على حرقه ، لكنه نجا من ذلك ، مما أدى بهم إلى تنحيته.
-114أبو القاسم سعد الله ، مرجع سابق ، ج2 ، ص: 465.
-115أحمد مربوش وآخرون ، مرجع سابق ، ص ص : 116/115.
-116المرجع نفسه ، ص:116.
-117مختار حيار ، ص: 130.
-118محمد أمين بلغيث ، الشيخ بن عمر العدواني مؤرخ ؟؟؟؟ والطريقة الشاذلية ، ط2 ، كتاب الفد للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2007 ، ص:50
-119أبو القاسم سعد الله ، مرجع سابق ، ج2 ، ص ص: 520 ، 521.
-120مختار جيار ، مرجع سابق ، ص:77.

-121بن عون بن كتو ، مرجع سابق ، ص:

-122كان ابن المفوفل من مشاهير ؟؟؟؟؟ شلف أوائل القرن العشرين ، اتصل به العثمانيون لفرض مساعدتهم في الاستيلاء على تلمسان ، وطلبوا منه التوبة معهم ، لكنه رفض أن يذهب معهم ، وأرسل بدله ولده مما يدل على كلامه الرضا والتأكيد

-123أبو القاسم سعد الله ، مرجع سابق ، ج2 ، ص: 466.

-124اسم أطلقه الإسبان على مكان يقع في ساحل مدينة الجزائر وعند العرب يعرف باسم حصن الصخرة

-125ولد عبد الكريم الفكون سنة 988هـ/1580م عاش مدة 85 سنة – عن أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج2 ،ـــ مرجع سابق ، ص ص:519

-126وتضم القبائل الواقعة في غرب الوادي وجرجرة وكانت سلطتها بيد الشيخ سيدي عمار بوختوس الصغير

-127عبد الرحمن الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ج4 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1982 ، ص:47

-128أحمد مريوش وآخرون ، مرجع سابق ، ص:119.

-129عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سابق ، ص:48.

-130أحمد مريوش ، مرجع سابق ، ص:120-.

-131أبو القاسم سعد الله ، مرجع سابق ، ص : 467

-132المرجع نفسه ، ص ص : 467 ، 468

-133يقال أنّ أتباع الحسن قاموا بقطع رأسه وأخذوه إلى خير الدين تذمرا من أعماله الوحشية.

-134تنتمي قبيلة الزاوية إلى منطقة بجاية ، حصلت على وضع قبيلة المخزن خلال العهد العثماني ، كما كانت تقوم بالقوامات للآيالة الجزائرية

-135أحمد مربوش وآخرون ، مرجع سابق ، ص:122

-136المرجع نفسه ، ص:122

-137المرجع نفسه ، ص:122

-138يمكن اعتبار لجوء سكان منطقة القبائل إلى حرمان البنات من الإرث بهدف منع انتقال الإرث إلى الفئة التركية خاصة بعد انتشار ظاهرة مصارهة لفئة المتصوفين والمرابطين

-139أحمد مريوش وآخرون، مرجع سابق، ص ص: 122،123
-140محمد أمين بلغيث، مرجع سابق ص: 65
-141بعد ضعف موارد البقر، وانخفاض الصادرات التي كانت الدولة تدفعها إلى الخارج، أصبح دايات الجزائر في أمس الحاجة إلى تغطية العجز فطالبوا بتنويع الموارد الاقتصادية مما بعثهم إلى تكثيف الحملات العسكرية على القبائل من أجل جمع الضرائب.
-142محمد أمين بلغيث، مرجع سابق،ص ص : 65 – 66
-143أحمد مريوش، المرجع السابق، ص: 124
-144محمد الأمين بلغيث، المرجع السابق، ص ص: 65 –66
-145المرجع نفسه، ص : 127
-146محمد الأمين بلغيث، المرجع السابق، ص: 66
-147أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق ، ص ص:509 – 510
-148محمد الأمين بلغيث، المرجع السابق، ص: 66
-149أحمد مريوش وآخرون، المرجع السابق، ص: 66
-150المرجع نفسه، ص ص: 129 – 130
-151أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج2، ص: 462
-152أحمد مريوش، المرجع السابق، ص ص: 129، 130
-153أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج2 ، ص: 468
-154المرجع نفسه، ص ص:420– 469
-155أحمد مريوش، المرجع السابق، ص: 131
-156أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق،ج1 ص: 471